بحث فى
رباعيات
بابا طاهر العريان

دراسة وترجمة :

دكتورة إسعاد عبد الهادى قنديل



المقدمـة :

يقول إدوارد براون فى كتابه "تـــاريخ الأدب فـــى إيـــران" الجزء الثانى « المعروف لنا عن بابا طاهر قليـــل جـــداً ، وقـــد اختلف كتاب الفرس اختلافاً كبيراً فى تحديد زمنه . بحيث جعله بعضهم من الرجال الذين عاشوا فى بداية القرن الحادى عـــشر الميلادى وأوائل الخامس الهجرى ، وجعله بعضهم الآخـــر مـــن رجال النصف الثانى من القرن الثالث عشر المـــيلادى وأواخـــر السابع الهجرى».

وهكذا تظل سيرة هذا الشاعر غير واضحة المعالم ، لعـــل الأيام تكشف عن وثائق توضح ماخفى من هذه السيرة ، ومازال هذا الغموض يكتنف ماخلفه لنا من أشعار ، وهل كـــل ماوصـــل إلينا من نظمه أم أنه أو على الأقل بعضه منحول.

وهذا ما سنحاول الإجابة عليه ما أمكننا ، حيث ســـنعرض لسيرة الشاعر محاولين تحديد زمن وجوده ، وكذلك ســـنعرض لرباعياته ، ونقدم ترجمة عربية لهذه الرباعيات ونقـــارن بـــين معانيها وسماتها الفنية وبين رباعيات مشاهير الشعراء الفـــرس أمثال عمر الخيام وأبى سعيد بن أبى الخير وغيرهما .

ونرجو أن يكون هذا البحث مجرد محاولة لاستجلاء بعض الغموض عن هذا الشاعر وعن رباعياته !

تمهيد
« فـــن الرباعـــى »

الرباعية أو الرباعى وحدة قائمة بذاتها يصوغها الـــشاعر فى مناسبة من المناسبات ويضمنها خاطراً من خواطره ويلخص فيها أحاسيسه ومشاعره.

والرباعية لها صفتان أساسيتان تميزانهـــا كإنتـــاج فنـــى لشعراء الفارسية ***فبالنسبة للـشكل الـشعرى*** : تتألف الرباعية من أربع وحدات من الشعر ، الأولى والثانية والرابعة تكون متحـــدة فى القافية ، أما الثالثة فيجوز أن تكون مقفاة ويجوز ألا تكـــون كذلك. والفرس يسمون هذا النمط الـــشعرى تـــسميات أخـــرى فارسية هى " ترانه "، چهارگانى ، و دوبيتى " أى البيتان مـــن الشعر ، لأن هذا الضرب من النظم مكون من حيث الشكل مـــن أربع وحدات تشبه البيتين من الشعر، ولهذا أجـــازوا أن تكـــون الوحدة الثالثة مقفاة أو غير مقفاة.

وبالنسبة للوزن : تختلف أوزان الرباعية عن جميع الأوزان التى اخترعها العرب ، ذلك أن أوزان الرباعى تعتبر على وجـــه التحديد من أصل فارسى . وقد تفنن الفرس فى أوزان الربـــاعى تفنناً بارعاً جعلهم يصوغونه على أربعة وعشرين وزنـــاً مـــن مستخرجات بحر الهزج [1]

---

(١) ارجع إلى إسعاد عبد الهادى قنديل : " فنون الشعر الفارسى"، ص ١٦٧.

ويذهب البعض إلى أن المستعربة هم الذين أطلقوا على هذا الضرب من النظم اسم رباعى ، لأن الرباعية فى نظر هؤلاء عبارة عن أربعة أبيات لا أربعة أشطر ، ذلك أن كل وحدة من الوحدات الأربع التى تتكون منها الرباعية تشتمل على أربع تفعيلات – مفاعيلن – ولما كان الرباعى يبنى على أوزان مستخرجة من بحر الهزج ، وبحر الهزج ، فى العروض العربى لا يجئ مثمناً ، فقد عدوا كل وحدة بيتاً لا شطراً ، وأسموا هذا الضرب بالرباعى.

أما رباعيات بابا طاهر فقد بنيت على وزن خاص من الهزج يعرف بوزن الهزج المسدس المحذوف ، وهذا الوزن يتكون من تكرار " مفاعيلن " ثلاث مرات فى الشطر الواحد بمعنى أن البيت يتكون من ست تفعيلات ، وتقتضب التفعيلة الثالثة والسادسة إلى مفاعل أو فعول أو مفعول ، ومن هنا أطلقوا على رباعياته اسم (دوبيتى ها) أى : الدوبيتات .

وإذا أردنا أن نعرف بداية هذا الضرب من النظم ورجعنا إلى ما كتبه شمس قيس الرازى ، نراه يروى قصة طريفة عن كيفية اختراع الرباعى فيقول « إن أحد الشعراء القدماء – ويظن أنه الرودكى – كان يسير فى أحد أيام الأعياد فى حديقة للنزهة فى مدينة غزنة ، فتوقف مع جماعة من أصحابه يرقبون الأطفال الذين كانوا يلعبون بالجوز ، واسترعى انتباهه على الأخص صبى صبوح قذف بجوزته فدخلت الحفرة التى جعلوها هدفاً ولكنها لم تستقر فيها طويلاً وخرجت منها ، ويشعر الغلام باليأس ، ولكن الجوزة ما لبثت أن عادت تتدحرج إلى الحفرة

واستقرت فيها ، فصاح الغلام فى نشوة من الفرح قائلا " غلتان غلتان همى رود تا بن كو "أى" تذهب متدحرجة، متدحرجة إلـــى قاع الحفرة » ، وتعرف الشاعر مع هذه الصيحة علـــى كيفيـــة اختراع نوع جديد من الوزن بأن ظل يكرر قول الـــصبى أربـــع مرات مع الوزن المناسب وبذلك اخترع الرباعية.[1]

وقد روى دولتشاه ، نفس هذه القصة مع استثناء واحـــد وهو أنه لم يذكر أن الرودكى كان أول من اخترع الرباعية ، وأن الصبى الذى اخترعها كان ابن يعقوب بن الليث الصفار مؤسس الأسرة الصفارية (٢٩٠:٢٤٥ هـ)[2]

وأيا كانت الروايات التى ذكرت فى هذا الصدد فليس هناك شك فى أن هذا النمط الجديد من الـــشعر ســـرعان مـــا انتـــشر وصادف هوى فى نفوس الناس ، فقد كان قصيرا بدرجة مناسبة تجعل من السهل تذكره والترنم به ، كما كان يعتمد علي الإعراب عن الأفكار والمشاعر بأسلوب سهل مبسط يفهمه الجميع .

وقد صور لنا شمس قيس الرازى كيف استقبل الناس هذا النوع من الشعر فقال : إن الخواص والعوام شغفوا به ، وتعلق به المثقفون والجهلة، والأخيار والأشرار ، والـــذين لا يعرفـــون كيف يفرقون بين الشعر والنثر ، والذين ليست لهـــم داريـــة أو معرفة بالوزن والقافية ، ومن الذين تبلدت أحاسيـــسهم بحيـــث

(١) المعجم من معايير اشعار العجم" لشمس الدين محمد بن يحيى الرازى ، ص ١٠٥ – ١٠٦ .

(٢) تـــذكرة الـــشعراء – لدولتـــشاه . ص ٣٠ – ٣١ ، بـــراون : ليـــدن ١٣١٨هـ/١٩٠٠م.

لايستطيعون التمييز بين أنغام الناي ونهيق الحمار ، فكان هؤلاء جميعا علي استعداد لأن يسلموا أرواحهم للرباعية.(١)

هذه الكلمات التي قالها شمس قيس علي ما فيها من مبالغة لطيفة تعطينا فكرة عن مكانة الرباعي في نفوس الفرس، ومدي تقبلهم لهذا النمط الشعري الجديد.

وقد ظل الرباعي منذ اختراعه ميدانا تجول فيه ألسنة شعراء الفرس وأقلامهم ويخوضه صغيرهم حتى إذا ما بلغنا العصر السلجوقي (٤٢٩ : ٥٥٢ هـ) نلاحظ أن هذا الضرب من النظم تطور تطورا كبيرا من حيث أغراضه ، إذ اتخذه جماعة من كبار الصوفية في هذا العصر وسيلة للتعبير عن خواطرهم العرفانية والصوفية والفلسفية .

ولعل من أشهر الشعراء الذين برزوا في هذا الضرب من النظم واعتمدت عليه شهرتهم دون غيره ، أربعة من الشعراء وهم حسب ترتيبهم الزمني :

أبو سعيد بن أبي الخير	المتوفى عام ٤٤٠ هـ
بابا طاهر الهمداني	المتوفى في منتصف القرن الخامس
الشيخ عبد الله الأنصاري	المتوفى عام ٤٨١ هـ
عمر الخيام	المتوفى عام ٥١٧ هـ

(١) " المعجم فى معايير اشعار العجم ص ١١٢ وما بعدها .

وقد ذهب جماعة من المستـشرقين مـن أمثـال " إيتـه "ونيكولسون " "وبراون " إلي القول بأن أبا سعيد أول من ابتدع الشعر الصوفي وأول من روج الرباعيات (١) .

وإذا كنا نتفق مع هؤلاء في القول بأن أبا سعيد كان مـن أوائل الشعراء الذين أمدوا الأدب الفارسي برباعيتهم " الصوفية، إلا أننا نتردد بعض الشيء في القول بأن أبا سعيد كـان وحـده أول من ابتكر الشعر الصوفي وأول من روج الرباعيات ، فمما لا شك فيه أن بابا طاهر كانت له جهود لا تنكر في هذا المجال .

---

(٢) انظر : Nicholson : Studies in Islamic Mysticism

الفصل الأول
التعريف ببابا طاهر

حياة بابا طاهر غامضة كل الغموض ، ولا يعـرف عنهـا إلا النذر اليسير من التفاصيل . وقد تضاربت الأقـوال بـشأنها تضاربا عجيبا . وما من شك في أن هذا الغموض الشديد الـذي اكتنف حياته ، والشهرة العريضة التي نالتها رباعياته يجعـلان منه شخصية جديرة بالدراسة في تاريخ الأدب الفارسي .

وإنه ليكفي لكي نصور الغموض الذي أحاط بحيـاة هـذا الرجل أن نذكر ما قاله " إدوارد هرون الن " مـن أننـا عنـدما نحاول أن نظفر بمعلومات عن حياة هذا الشاعر الذي لا نعـرف عنه شيئا تقريبا ، نكون كمن يتحدث عن الطريقة التي صنع بها اليهود الطوب النيئ " في عهد قدماء المصريين[١].

وما قاله " وحيد دستكردي " ناشر ديوان بابا طـاهر مـن أنه" ليس في أيدينا معلومات كافية عن حياة بابا طاهر ، وأن ما كتبه كتاب التذاكر عن ترجمة حياته إذا استبعدت منـه الزينـات الأدبية للكتابة لا يبقي منه إلا سطور قليلة [٢].

وقد بذلت محاولات كثيرة للكشف عن شخصية بابا طاهر ، وقام بهذه المحاولات عدد من المستـشرقين فـي مقـدمتهم : "كليمان أوبار " و " ادوارد هـرون الـن " و " ادوارد بـراون "

---

(١) Heron – Allen : The Lament of Baba Tahir, P.1.

(٢) " ديوان بابا طاهر " انظر مقدمة الناشر .

خرجوا من دراستهم ببعض الحقائق عن بابا طاهر ، وإن كانت محاولاتهم جميعا قد توقفت عند عائق واحد ، هو قلة أو بالأحرى ضآلة المصادر التي استقوا منها معلوماتهم .

وإذا تعرضنا أيضا للمصادر الفارسية التي تحدثت عن بابا طاهر لا نجد منها إلا عدداً قليلاً يتحدث عن بابا طاهر نفسه ، بينما نجد الكتب والمخطوطات الأخرى إما أن تذكر مقتطفات من رباعياته دون تعليق ، أو تتحدث عن الرباعيات نفسها دون أن تتحدث عن مؤلفها أو تتحدث في معظمها عن السلطان الذي عاش بابا طاهر في عصره وتخصص عبارات طويلة للثناء عليه.

عصره :

اختلفت المصادر في تحديد عصر بابا طاهر اختلافاً كبيراً حتى أن بعضها يجعله من رجال أواخر القرن الرابع الهجري أو بداية القرن الخامس ويجعله البعض الآخر من رجال القرن السادس أو أواخر القرن السابع الهجري .

وأقدم المصادر التي حدثتنا عن بابا طاهر هو كتاب " راحة الصدور " وقد قدمه إلينا هذا المصدر على أنه كان أحد ثلاثة من شيوخ الصوفية قابلهم طغول بك السلجوقي (٤٢٩ : ٤٤٥ هـ) عندما ذهب إلي مدينة همدان عام ٤٤٧ هـ ، وأن بابا طاهر أمد السلطان بنصيحة طبية وأهدى إليه رأس أبريق مكسور كان

يستعمله في الوضوء مدة ، وظل السلطان يحتفظ بهذه الهديــة وكان إذا خرج لموقعه يلبسها في أصبعه [1] .

والمصدر الثاني الذي تحدث عن بابا طاهر هــو " مجمــع الفصحاء " وقد تحدث مؤلفه رضا قليخان عن بابا طاهر وهــو يقدم لبعض رباعياته فذكر اسمه وأنه كان يلقــب ببابــا طــاهر العريان الهمدانى ، ثم يقول بعد ذلك إن بعض المؤلفين يرون أن بابا طاهر كان معاصرا لسلاطين السلاجقة ولكــن هــذا الــرأي خاطئ ، فقد كان واحدا من أقدم الشيوخ الذين عاشوا في ظــل الديالمة ، ولمع اسمه حوالي عام ٤١٠ هـ وتوفي قبل الأنصاري والفردوسي ، أي أنه كان معاصراً لهما[2].

علي أن رضا قلي خان يعود للحديث عن بابا طاهري فــي كتابة "رياض العارفين [3] الذي ألفه بعد مجمع الفصحاء بحوالي عشر سنوات فيقول " إن بابا طاهر توفي عام ٤١٠ هــ وعلــي هذا لا يمكن أن يكون معاصرا لعين القضاة الهمداني الذي مــات عام ٥٢٥ أو ٥٢٦ هـ [4] كما ذكر حاجي خليفــة ، أو معاصــرا لنصير الدين الطوسي الذي توفي عام ٦٧٢ هـ .

أما كتاب " آتشكده " فنجد به مقدمــة لخمــسة وعــشرين رباعية من رباعيات بابا طاهر ذكرت تحت عنوان "عراق عجم"

---

(١) " راحة الصدور " الراوندى . ص ٩٨ – ٩٩ .
(٢) " مجمع الفصحاء " رضا قلى خان .
(٣) " رياض العارفين " : " رضا قلى خان ص ١٦٧" .
(٤) جاء فى دائرة المعارف الإسلامية أن الصوفى عين القضاة الهمدانى أعــدم عام ٥٣٣هــ.

وهو يقول في هذه المقدمة " العريان الذي يسمي بابا طاهر هو رجل مجذوب ، وعارف مطلع على كل شيء ، وهو عاشق مفتون يبدو احتراق روحه من أشعاره وقد نظم رباعيات كثيرة باللهجة الراجية في وزن خاص ويتميز معظمها بخصائص معينة" (١) .

وقد جاء فى كتاب " تاريخ ادبيات ايران " وهو من الكتب الحديثة ما يلى :

" كان بابا طاهر العريان من همدان ، وقد كان اتجاهه الصوفى سببا فى أنه عاش معتكفا مغمورا ، ولم يبق من التفصيلات عن حياته سوى ما ورد فى كتب التصوف عن منزلته وطريقته فى الرياضة ومنهجه فى التصوف . ويقال إنه التقى فى حياته بطغول بك أول ملك سلجوقى عام ٤٤٧ هـ فى مدينة همدان . أما شهرة الشاعر فقد شغلت أواسط القرن الخامس الهجرى ، ويظهر من هذا أن مولده كان فى أواخر القرن الرابع الهجرى (٢).

ونحن إذا رجعنا إلى النبذة المروية عن بابا طاهر فى كتاب راحة الصدور نجد أنها تجعل وفاته بعد عام ٤٤٧ هـ ، وهذا وإن كان يتعارض مع التاريخ الذى حدده رضا قلى خان لوفاة بابا طاهر وهو عام ٤١٠ هـ إلا أنه لا يتناقض مع ما ذكره من أن بابا طاهر كان موجودا فى عهد الديالمة ، فمن المعروف أن بنى

---

(١) آتشكده " للطف على بك آذرد لى .

(٢) " تاريخ ادبيات ايران " رضا زاده شفق ، ص ٧١ .

بويه وأقاربهم آل كاكوية ظلوا يحكمون همـــدان حتـــى حملـــة إبراهيم بن ينال عام ٤٢٨ هـ.

وإذا وضعنا فى الاعتبار أن كتاب "راحة الصدور" يعتبر من أوثق وأدق المصادر فى تاريخ السلاجقة ، وأنه أيضا من أقــدم المصادر وأقربها عهداً إلـــى عـــصر بابـــا طـــاهر ، أمكننـــا أن نستخلص من التاريخ الذى ذكره هذا المصدر للقاء بابا طاهر مع طغول بك أن بابا طاهر كان حيا حتى عام ٤٧٧ هـ ، وأمكننا أن نتصور أنه كان قد قارب الخمسين مـــن عمـــره أو تجاوزهـــا ، وبناء على هذا يمكن أن نرجح القول بأن بابا طاهر ولـــد فـــى أواخر القرن الرابع الهجرى.

وإذا عرفنا أيضا أن زيارة طغول بك لهمدان كانت حـــوإلى عام ٤٤٧ هـ أو ٤٥٠ هـ ، أمكننا أن نستنتج من ذلك أن وفاة بابا طاهر وقعت فى أوائل النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، وعلى هذا يمكن أن نعد بابا طاهر من رجال القـــرن الخـــامس الهجرى .

موطن بابا طاهر :

لعل الحديث عن ألقاب بابا طاهر يكشف لنا عـــن مـــوطن الشاعر والأماكن التى ينتسب إليها .

وبابا طاهر يلقب أحيانا بـــ "بابا طاهر اللورى" نسبة إلـــى بلاد اللور (لورستان).

وإذا تعرضنا للقب الأول " الهمدانى " نجد أن معظم المصادر تتفق على أن بابا طاهر عاش فى همدان وتوفى فيها ولا يزال قبره قائما بها . وقد جاء فى كتاب نزهة القلوب أن قبر بابا طاهر موجود على تل صغير فى الشمال الغربى من همدان فى حى " بن بازار".

وإذا رجعنا إلى اقوال الشاعر نجده فى رباعياته يشير إلى هذا اللقب ويلقب نفسه بالهمدانى . كما نجده أيضا يذكر فى الكثير من رباعياته اسم جبل الوند الذى يشرف على مدينة همدان .

وإذا تعرضنا للقب الثانى " اللورى " نجد أيضا أن بعض المصادر تلقب بابا طاهر بهذا اللقب حتى أن Stangees يسميه " طاهر اللورى الطاطى " ويذكر أن " طاطى " هذا هو اسم احدى قبائل اللور . ومما يوضح صلة الشاعر بلورستان ما نراه فى لغته من استعمال اللهجة اللورية حتى إن الكثيرين ذهبوا إلى أن رباعياته نظمت بهذه اللهجة .

ولا شك أنه من الغريب أن ينسب الشاعر إلى همدان ولورستان فى آن واحد وقد تساءلت دائرة المعارف الإسلامية عن السبب فى ذلك ولكنها أجابت فى النهاية بأن الصلات بين همدان ولورستان كانت وثيقة جدا فى القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) ، وأن الشاعر ربما عاش مقسماً حياته بين البلدين .

وهناك لقب آخر يلقب به بابا طاهر وهو لقب " عريـــان " وقد تعرض " هرون الن " لهذا اللقب وعلله بأن بابا طاهر كـــان يتجول عارياً فى شوارع همدان .

شخصية بابا طاهر :

قدمت إلينا المصادر جميعها " بابا طاهر " على أنـــه كـــان شيخاً تقياً يوصف بالولاية ، ورجلا من رجال الصوفية أصـــحاب المقامات والكرامات ، ودرويشاً مجذوباً وعاشقاً مجنوناً بالمعنى الصوفى لكلمة الجنون . ولولا رباعيات بابا طاهر التى اشتهرت وبقيت على مر الأيام لما اهتم الناس ببابا طاهر كشاعر وربمـــا اقتصر ذكره بين الأولياء والعرفاء وأصحاب الكرامات .

وهناك كثير من الأساطير التى تروى عن كرامـــات بابـــا طاهر شأنه فى ذلك شأن غيره من شعراء الصوفية منها أن بابا طاهر كان رجلاً أمياً حطاباً – وكان يتوجه خـــلال النهـــار إلـــى احدى المدارس فى همدان ويستمع إلى الطلبـــة وهـــم يقـــرأون دروسهم ، وكان هؤلاء يسخرون منه كثيراً وفى يوم من الأيـــام طلب بابا طاهر من زملائه أن يدلوه على طريق العلم فأجـــابوه متندرين بأن الإنسان لا يحصل على العلم إلا إذا امضى ليلة من ليالى الشتاء فى صهريج مملوء بماء شديد البرودة . ونفذ بابـــا طاهر قولهم ، فلما أصبح الصباح وجد نفسه مستنيراً بـــالعلم . وعندما توجه إلى المدرسة فى اليوم التالى أخـــذ يخـــوض فـــى مناقشات فلسفية مع التلاميذ الذين وقفوا عاجزين أمامه ، ولما سألوه عن السبب فى هذا التغير الفجائى روى لهم القصة وقال:

« أمسيت كردياً وأصبحت عربياً » وقد ذكرت هذه القــصة فـــى دائرة المعارف الإسلامية كما ذكرها هرون الــن فـــى كتابـــه " اشجان بابا طاهر". ويقول إنها منتشرة جدا فـــى إيـــران وأنـــه سمعها فى "بوشهر" كما سمعها " جكوفسكى " أيضا فى إيران .

وهناك أساطير أخرى لها مسحة من التقى تروى عن بابا طاهر منها ، أنه كان يتميز بحرارة غير عادية تشع من جـــسده بحيث لم يكن أحد يستطيع أن يجلس إلى جواره . وأنـــه كـــان يذيب البرد فوق جبل الوند بقوة حرارته الروحية . ومنها أيضا أنه حل بأصبع قدميه سؤالا فى الفلك وجه إليه ، وأنـــه أطعـــم جيش " طغول " كله بصاع من الأرز .

وتذكر دائرة المعارف الإسلامية أنه جاء فى أحـــد الكتـــب الدينية ويسمى " سر آنجام " أن بابا طاهر يحتل مكانـــة كبيـــرة عند طائفة أهل الحق فهم يعتقدون – فى نظريتهم عـــن تجـــسد الإله – أن الإله تجسد فى سبع صور متعاقبة فظهر قبـــل الأزل فى صورة " خاوند كار" وفى الثانية فى صـــورة "علـــى " وفـــى الثالثة فى صورة " بابا كوشين " وفـــى الرابعـــة فـــى صـــورة "السلطان أسحق". ويقولون إن الإله ظهر فى كل مرة يحف بـــه أربعة من الملائكة لكل منهم وظيفته الخاصة ، ويعتقد أهل الحق أن بابا طاهر كان واحدا من الملائكة الذين صحبوا بابا كوشين .

ويقول Globncao فى كتابه : Trais aus en edsie «إن أتباع طائفة أهل الحق يمجدون كل التمجيد مـــشاهير الـــصوفية ويسمون الأماكن بأسمائهم إعجاباً بهم وخاصة بابا طاهر الـــذى يقدرون شعره المكتوب فى لهجة خاصة تقديراً كبيراً» .

ومن المسلم به أن بابا طاهر كان من كبار المتصوفة فـــى عهده ، وقد تحدثت بعض كتب التصوف عنه وبينـــت منزلتـــه وطريقته فى الرياضة ومنهجه فى التصوف .

آثار بابا طاهر:

تعتمد شهرة بابا طاهر على رباعياته وآثاره الـصوفية . وقد نسبت إليه مؤلفات شعرية باللغة العربية والفارسية . ومما ينسب إلى بابا طاهر إنه ألف ٢٢ رسالة فـــى علــم مـــا وراء الطبيعة . وقد أشارت إليها دائرة المعارف الإسلامية وذكرت أن الفضل يرجع إلى " اتيه " و" بلوشيه" فى معرفة وجود تفاســير وشروح لأقوال بابا طاهر .

ومن الآثار العربية التى تنسب إلى بابـــا طـــاهر رســـالته المسماة "الكلمات القصــــار" وهى عبارة عن مجموعـــة كلمـــات قصيرة تشرح عقائد التصوف وتتحدث عـــن العلـــم والمعرفـــة والإلهام والفراسة والدنيا والعقبى والعقل والـــنفس والاعتكـــاف والسماح والذكر والإخلاص ... ويقول هرون الن إن الكنايـــات التى فى هذه الرسالة تعتبر نموذجاً رائعاً للأقوال الصوفية .

على أن عماد شهرة بابا طاهر فى الواقع هو رباعياتـــه ، تلك الرباعيات التى احتلت مكانة مرموقة فى قلوب الفرس منـــذ القدم والتى ما زالت رغم مرور أكثر من عشرة قرون على وفاة قائلها ، تحتفظ بهذه المكانة وتغنى وتروى فـــى جميـــع أنحـــاء إيران إلى يومنا هذا .

ومما جعل رباعيات بابا طاهر قريبة إلى قلوب الفرس أن الشاعر يعبر فيها عن أحاسيسه ومشاعره فى صورة بسيطة سهلة لا أثر للتكلف أو التصنع فيها ، فهو يسترسل فى رباعياته على سجيته ولا ينطق إلا بما يعتلج فى قلبه المفتون المفعم بالعشق والمحبة ولهذا جاءت رباعياته ترجماناً صادقاً لقلبه المرهف وإحساسه الدقيق.

يقول وحيد دستگردى إن رباعيات بابا طاهر احتلت مكانا من قلوب العوام والخواص أكثر من آثار شعراء الفرس الآخرين، ذلك أن هناك بعض المتعصبين الذين لا يتحمسون لرباعيات الخيام ، كما أن كثيرا من الأفراد العاديين مع تعلقهم وشغفهم بسعدى وحافظ يعجزون عن إدراك اللطائف الدقيقة فى أشعارهما ، ولكن من الذى لا يتأثر من أعماق قلبه وروحه بالألحان اللورية الجذابة لبابا طاهر .. ومن الذى لا يدرك احتراق باطن هذا المتصوف العظيم ولا يقع تحت تأثير سحره .... وفى هذه الناحية لا يوجد فرق بين الأديب المتحضر والجاهل الريفى لأن الذين يعجزون عن قراءة هذه الرباعيات يتأثرون ويشغفون بها عن طريق السماع بالقدر الذى يحس به الأديب من التأثر والشغف عند قراءتها ." ويقول أيضاً " إن هناك كثيرين لا يعرفون القراءة والكتابة ولكنهم يحفظون رباعيات أبى العشاق " بابا طاهر " ويعتبرونها ملحاً ومرهماً لقلوبهم الجريحة.

وتمتاز رباعيات بابا طاهر عن غيرها من الرباعيات بمميزات كثيرة منها:

" أن هذه الرباعيات تمتاز بالبساطة البالغة من حيث سهولة ألفاظها وقرب معانيها وخلوها من التكلف والصناعة .

وأنها تجرى على وزن يغاير أوزان الرباعى المعروفة فهى تجرى على وزن الهزج المسدس المحذوف ولذلك نجد ناشر هذه الرباعيات يسميها " دوبيتى ها " بدلا من " رباعيات " لأن هذا الاسم أقرب صلة بوزن الهزج المكفوف المقصور.

وجدير بالذكر أن رباعيات بابا طاهر لا يعرف عددها على وجه التحديد وقد ذكر كليمان اوبار أنه يملك مخطوطا قديما لرباعيات بابا طاهر يحتوى على ٥٩ رباعية وقد اعتمد فى بحثه على هذا المخطوط .

كما ذكر ادوارد هرون الن أنه اعتمد فى كتابه " أشجان بابا طاهر " على المخطوط الذى يملكه كليمان اوبار وأنه عثر على ثلاث رباعيات أضافها إليها .

وقد طبعت رباعيات بابا طاهر مرتين :

الأولى : مع ترجمة فرنسية محشاة بواسطة الأستاذ " كليمان اوبار " فى المجلة الأسيوية عدد نوفمبر وديسمبر من سنة ١٨٨٥ م (المجموعة الثامنة ، مجلد ٦).

الثانية : مع ترجمة انجليزية منشورة مصحوبة بكثير من التعليقات بواسطة المستر "ادوارد هرون الن " فى كتابه "أشجان بابا طاهر " المنشور سنة ١٩٠٢م . وقد تضمن هذا الكتاب أيضا ترجمة أخرى منظومة للرباعيات كتبتها السيدة "اليزابيث كورتيس برينتون".

كما طبع أيضا مرتين فى إيران :

الأولى : بمطبعة أرمغان عام ١٣١١ هـ . وقام بنشرها وحيد دستگرى المحرر بمجلة أرمغان ، وتكرر طبعها حتى الآن تسع مرات .

والثانية : قامت بها دار مطبوعات أمير كبير بإيران وهذه الطبعة مقابلة للطبعة التى نشرها وحيد دستگردى .

لغة بابا طاهر :

اختلفت المصادر فى تحديد " اللغة " أو بالأحرى " اللهجة " التى نظم بها بابا طاهر رباعياته .

ويعتقد صاحب آتشكده أن رباعيات بابا طاهر منظومة باللهجة الراجية بينما يذهب وحيد دستگردى إلى أنها منظومة باللهجة اللورية .

ويرى رضا زاده شفق أن رباعيات بابا طاهر منظومة فى لهجة شبيهة بلهجة اللور التى تسمى فى الكتب القديمة بالفهلويات . ويذكر أن الطريقة التى تلفظ بها الكلمات – فى هذه الرباعيات – تحتفظ بشكل اللهجات الإيرانية القديمة وتقرب من البهلوية مثل استعماله لكلمة " مو " بدلا من "من " و" شو" بدلا من (شب) و"بنم" بدلا من (بينم) و" كرن " بدلا من (كنند) وتم بدلا من (گويم) .[1]

---

(١) " تاريخ ادبيات ايران " رضا زاده شفق .

وإذا رجعنا إلى أبحاث المستشرقين فى هذا المجال ، نجد " كليمان اوبار " يذهب فى بحثه المنشور فى المجلة الآسيوية إلى أن رباعيات بابا طاهر منظومـــة باللغـــة أو اللهجـــة البهلويـــة الإسلامية حتى لقد جعل عنوان بحثه هذا :

Les Quatrains de Baba Tahir Uryan en Pehlavi Moslem.

أى " رباعيات بابا طاهر العريان بالبهلويـــة الإســـلامية ". وقد اعتمد " اوبار " فى هذا الرأى على ما جاء فى كتاب آتشكده من أن رباعيات بابا طاهر منظومة باللهجة الراجية ، فهو يقول: «إن هذه اللهجة تشبه قريناتها من لهجات الشمال فى بلاد فارس والتى تسمى بأسماء " گيلك ، مازندران ، تالش ،وغيرها، وهذه اللهجات متقاربة جدا سميت جمعيها بواسطة المؤلفين الشرقيين باسم " البهلوية "» ثم يضيف اوبار أنه يرى أن يزيد على هـــذا الأسم صفة الإسلامية " ليفرق بينهما وبـــين اللغـــة الفارســـية القديمة التى تسمى أيضا باللغة البهلوية. [1]

أما ادوارد هرون الن فيقول «طبقا لما رواه **Cobuneao** فإن بابا طاهر كان ينظم باللهجة اللورية » ثم يـــستطرد قـــائلا «وربما كان من الخير أن نوافق على الرأى الـــذى جـــاء فـــى آتشكده من أن هذه الرباعيات نظمت بلهجـــة الراجـــى ، وهـــذه

(١) " تاريخ ادبيات " صفا جـــ ٢ ، " سخن وسخنوران " بديع الزمان خراسانى " رياض العارفين " رضا قلى هـــدايت " تـــاريخ الأدب " بـــراون جــــ ٢، ص ٣٢٣.

اللهجة هى إحدى مجموعة اللهجات فى شمال فارس والتى اقترح اوبار تسميتها بالبهلوية الإسلامية» .

ويذكر هرون ألن أيضا أن براون أرسل إلى شيخ كرمان يستفسر عن هذه اللهجة فكتب إليه الشيخ يقول "أن اللهجة التى أرسلت إلىّ تطلب معلومات بشأنها هى لهجة اللور التى تستخدم فى شيراز وأصفهان وهى اللهجة البهلوية وقد نظم بها عدد من الشعراء مثل سعدى وأبى إسحق وحافظ وخواجوى كرمانى .

وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية أنه نظراً لصلة الشاعر بهمدان ولورستان فإنه من المعقول أن توجد آثار من لهجة هذه الأقاليم فى لغته .

كما نذكر أن البلاد الواقعة بين همدان وخرم آباد ما زال فيها عدة لهجات وأن اللهجة التى استعملها بابا طاهر ليست ذات صلة بلهجة واحدة معينة وإنما هى مستمدة من هذه اللهجات جميعها . ويؤكد هذا القول بأن بابا طاهر استعمل كلمة " نوم" بدلا من (نام) و" دستوم" بدلا من " دستم" و " دير " بدلا من (دور) وهذا الاستعمال خاص بلهجة اللور .

واستعمل أيضا كلمة " ميكرو" بمعنى (يفعل) و" آيو" بمعنى " يأتى " وهذا مستعمل فى لغة الحديث الكورانية . كما استعمل كلمة " ديوم " بدلا من (دارم) ولا يوجد شبيه لهذا الاستعمال إلا فى بلدة كازرون بالقرب من شيراز .

ويلاحظ أيضا أن بابا طاهر يحذف فى بعض رباعيته " دال" المضارعة وهو ما يستخدم عادة فى لغة الحديث فى همدان .

على أنه يجدر بنا فى هذا الصدد أن نذكر أن رباعيات بابا طاهر قد نقلت خلال تسعة قرون تقريبا عن طريق الرواية . ولا شك أنها تعرضت للتغييرات التى تطرأ عادة على مثل هذه الأغانى الشعبية عندما تدون . كما أن تتابع النساخ وربما جهلهم باللهجة التى كتب بها شعر بابا طاهر ، وإهمال بعضهم أيضا فى التحقيق من الناحية التاريخية ، وربما كان هذا كله مدعاة لوجود نصوص مختلفة متباينة إلى حد كبير لهذه الرباعيات .

ولا شك أنه من العسير أن نضع رباعيات بابا طاهر فى اللهجة التى استخدمها هو لأنه من الواضح كما ذكرنا أن هذه الأشعار كانت تنتقل عن طريق الرواية وأن الذين كانوا ينقلونها كانوا يحاولون النطق بها مفهومة واضحة حسب اللهجات والبلاد التى عاش فيها هؤلاء الرواة .

ونخرج من هذا كله بأن رباعيات بابا طاهر لم تنظم بلهجة واحدة معينة وإنما هى خليط من عدة لهجات متقاربة كانت سائدة فى شمال فارس .



الفصل الثانى

بابا طاهر من خلال رباعياته

عندما تحدث الكتاب والنقاد والباحثون عن حياة بابا طاهر، وصفوا هذه الحياة بأنها غامضة أو يحيط بها الغموض ، وكـان مصدر هذا الغموض الذى أحاطوا به حياته أنهم لم يجـدوا فـى المصادر التى تعرضت لبابا طاهر – كما لاحظنا أثناء دراسـتنا لهذا الشاعر – لم يجدوا فى هذه المصادر إلا النذر اليسير مـن التفاصيل التى لا تكفى فى مجموعها لإعطائنا صـورة واضـحة عن حياة هذا الرجل .

وفى اعتقادنا أن جميع الباحثين الذين درسوا قـد أغفلـوا مصدراً هاماً وغنياً وخصباً يمكننا من أن نلقى أضواء قوية على حياة هذا الشاعر الكبير ونتعرف على ما خفى مـن جوانبهـا . وهذا المصدر الخصيب الغنى هو رباعيات بابا طـاهر نفـسها . فعن طريق دراسة هذه الرباعيات يمكننا أن نميط اللثـام عمـا غمض فى حياة هذا الرجل ، وليس هذا فحسب ، بـل ويمكننـا أيضا أن نعرف الكثير عن اتجاهاته وميوله وطباعه وخصائصه ومذهبه فى التصوف وأسلوبه فى أشعاره والفـرق بـين هـذا الأسلوب والأساليب التى استعملها غيره مـن الـشعراء ، كمـا يمكننا بالتالى أن نقف على مكانته بين شعراء الرباعيات .

ومن أجل هذا نشعر أن دراسة رباعيات بابا طـاهر هـى المنفذ أو الباب الذى يفضى إلى دراسته دراسة صحيحة ، وهـو الباب الذى وقف أمامه الكتاب والنقـاد والبـاحثون ولا نعـرف

السبب فى أنهم لم يلجوه ، ولو أنهم فعلوا لاستطاعوا أن يسدوا أكثر من ثغرة فى حياة بابا طاهر .

كل هذه خواطر سنحت لنا ونحن نقرأ رباعيات بابا طاهر وشعرنا معها أن من واجبنا أن نساهم ولو بقليل فى إجلاء الغموض الذى أحاط بحياة هذا الرجل .

والحقيقة أن بابا طاهر قد ساعدنا كثيرا فى هذا المجال ، فهو يتحدث فى هذه الرباعيات عن الأماكن التى ارتادها والبلاد التى عاش فيها ، وهو يصور لنا فى دقة نوع الحياة التى كان يحياها ويوضح لنا آراءه فى هذه الحياة الدنيا كما يعطينا فكرة واضحة عن آرائه الفلسفية والصوفية .

وقد عرفنا بابا طاهر فى رباعياته بموطنه فذكر أنه همدانى ينتسب إلى مدينة همدان ، كما أشار مرارا إلى جبل الوند الذى يشرف على هذه المدينة .

يقول :

أنا ذلك الصقر الأبيض الهمدانى
ولي عش خفى فى الجبال
أطير بجناحى من جبل إلى جبل
وأقبض بمخالبى على صيدى [1]

---

(١) موآن آسپيده بازم همدانى
لانه در كوه دارم در نهانى
ببال خود پرم كوهان بكوهان
بچنگ خود كرم نخجير بانى

ويقول :

غرست وردة على سـفح – جبـل – ألونـد
ورويتها بدموع العين فى الصباح والمساء
وحينما حان فواح أريجها
حملته الريح من أرض إلى أرض[1]

ويصف لنا بابا طاهر مسلكه فى الحياة إنه درويش يحيا حياة العزلة والانفراد ، ليس له أهل ولا عشيرة ولا مأوى ، يقضى نهاره فى الطواف ويتوسد فى نومه الأحجار .

يقول :

أنا ذلك الدرويش الذى يسمى بالقلندرى
لا أهل لى ولا عشيرة ولا مأوى
عندما يأتى النهار أطوف حول حيك
وعندما يأتى الليل أتوسد الأحجار [2]

---

(١) گلى كشتم بى آلوند دامان
اوش از ديده دادم صبح وشامان
وقت آن بى كه بويش را موآيى
بره بادش بره سامان بسامان

(٢) موآن رندم كه نامم بى قلندر
نه خان ديرم نه مان ديرم نه لنگر
چو روز آيه بگردم گرد كويت
چو شو آيه بخشتان وانهم سر

ويقول :

استـــتمع يـــا إلهـــى إلـــى شـــكوى فـــؤادى
فأنت أهل من لا أهل له وقد أصبحت بدون أهل
كل النـــاس يقولـــون إن طـــاهراً لا أهـــل لـــه
ولكن الله تعالى وليى فما حاجتى حتى إلى الأهل ؟[١]

ويصور لنا بابا طاهر كيف تغشي قلبه الهموم وتأخذ منـــه الكآبه كل مأخذ فلا تزدهر في مروج أفكاره الا زهـــور الأســـى والحداد .

يقول :

إن للهـــم مكانـــا خربـــا فـــي صـــدري
مثل الأماكن الخربة التي تـــأوي إليهـــا البـــوم
إن الفلـــك يـــشع فـــي قلبـــي المـــسكين
كل ما يختزنـــه فـــي مخلاتـــه مـــن همـــوم[٢]

---

(١) خداونـــدا بفريـــاد دلـــم رســـى
كس بيكس توئى مو مانـده بيكـسى
همـــه گوينـــد طـــاهر كـــس نـــدارد
خدا يار منـــه چـــه حاجـــت كســـى

(٢) غـــم انـــدر ســـينه موخانه ديـــرى
جو ويرانه كه يوم آشانه ديـــــرى
فلك انـــدر دل مســـــكين مونـــه
ازين غم هرچه درانبانـــه ديـــرى

ويقول :

لا ينبـــت فـــي مـــروج أفكـــاري ســـوي الألـــم
ولا يزدهر في حديقتي سوي زهور الأسى والحداد
إن صـــــحراء قلبـــــي شـــــديدة الجـــــدب
حتـــى إن حـــشائش اليـــأس لا تنبـــت فيهـــا![١]

ويتميز بابا طاهر بنحو من أنحاء الضعف الإنساني فعيناه لا تنصرفان في سهولة عن التعلق بأسباب الحياة الدنيا ، وقلبه الثائر يشتعل بين ضلوعه ولا يريحه لحظة ، فيصرخ قائلا:

الغيـــاث مـــن فعـــل العـــين والقلـــب كليهمـــا
كـــل مـــا تـــراه العـــين يـــذكره القلـــب
أصـــنع خنجـــرا ذبابـــه مـــن فـــولاذ
أضربه فـــي العـــين لكـــي يتحـــرر القلـــب [٢]

---

(١) زكشت خاطـــرم جـــز غـــم نرويـــو
زباغم بجـــــــز گل ماتم نرويـــــو
ز صحراى دل بيحاصـــــــل مـــــو
گيـــاه نا اميـــــدى هم نرويـــــــو

(٢) زدســـت ديـــده ودل هـــردو فريـــاد
هـــر آنچـــه ديـــده بينـــد دل كنـــدياد
بـــسازم خنجـــرى نيـــشش زپـــولاد
زنـــم برديـــده تـــادل گـــردد آزاد

ويقول :

أأنت أسد أم نمر أيها القلب
لأنك في حرب معي دائما
لو وصلت يدي إليك لسفكت دمك
لأرى من أي لون أنت أيها القلب [1]

ومما يلاحظ على بابا طاهر إنه يشبه نفسه مراراً بالصقر والهما وأنواع من الطيور كما يتحدث عن نفسه كثيراً مما يدل دلالة أكيدة على وضوح ذاتيته في شعره .

يقول :

أنا ذلك الصقر الأبيض وصدري مبرد
ومرعاى هى الجبال التي لا بداية لها ولا نهاية
إنهم يسنون كل سلاح بالمبرد
ولكنني أنا ذلك السيف الذي سنه الله [2]

---

(١) مگر شير وپلنگى ايدل ايدل
بمودايم بجنگى ايدل ايدل
اگر دستم رسيد خونت بريختم
بوينم تاچه رنگى ايدل أيدل

(٢) موآن اسپيده بازم سيئه سوهان
چراگاه مويى سريشن كوهان
همه تيغى بسوهان ميكرن تيز
موآن تيغم كه يزدان كرده سوهان

يقول :

أنا طائر " الهما " وموطني قمة الجبل
أطير في العالم من واد إلي واد
لا أهل لي ولا عشيرة ولا مأوى
وعندما أموت يكون كفني ريشى وجناحي[1]

ويتحدث بابا طاهر عن نفسه مشيراً إلي مكانته عند أهل الحق وإلي لقبه " العريان " .

يقول :

أنا ذلك البحر الذي عبئ في زجاجة
أنا تلك النقطة الضرورية للحرف
في كل ألف سنة يظهر رجل سوي محقق
وأنا ذلك الرجل السوي الذي ظهر في هذا العصر [2]

---

(١) هما يونم سر كوهم وطن بى
سير عالم كرم هر جا چمن بى
نه خون ديرم نه مون ديرم نه سامون
دم مردن پر وبالم كفن بى

(٢) مرآن بحرم كه در ظرف آمد ستم
مرآن نقطه كه در حرف آمدستم
بهر الفى الف قدى برآيه
الف قدم كه در الف آمد ستم

ويقول :

لا أدري من الـــذي جعلنـــي مجـــرداً وعريـــان
ومع أني جلاد ، لا أعرف من الذي ســلبني روحـــي
أعطنـــي الخنجـــر لكـــي أمـــزق صـــدري
وأري مـــاذا صـــنع العـــشق بروحـــي[1]

ويتحدث بابا طاهر عن آرائه في الحياة الـدنيا والآخـرة فيدعو الناس إلي الزهد في الدنيا والتقليل منها ويقبح حـسنها وزهوتها لأنها تخدع الناس ببريق كاذب ، ويري أن الـدنيا مـا هي إلا دار للفناء ومتاعها ما هو إلا متاع الغرور وفي نهايتهـا يستوي الفقير والأمير ولن يعدم واحد منهما كفنا يلف فيه . كما يري أيضا أن الأحزان والألأم التي يقاسيها الإنسان فـي الـدنيا يجب أن يحتسبها العاقل لأخرته فكأن الدنيا عنده هـي مزرعـة الآخرة .

---

(١) نـــزونم لـــوط وعريـــانم كـــه كـــرده
خـــودم جـــلاد وبيجـــونم كـــه كـــرده
بـــده خنجـــر تاســـينه كـــنم چـــاك
ببينم عشـــق بر جونـــم كـــه كرده

يقول :

إن جميع متاع الدنيا مآله إلي العـدم والفنـاء
فأصـرف نظـرك عـن متـاع الـدنيا
إن الهمـوم والآلام التـي فـي قلبـك
هـي ذخيرتـك ليـوم الحـشر[1]

ويقول :

تجولـت قلـيلا وكثيـرا بـين المقـابر
ورأيـت حـال الغنـي والفقيـر
فلـم أر فقيـرا دفـن بـلا كفـن
ولم أر غنيا دفن بـأكثر مـن كفـن واحـد[2]

ويقف بابا طاهر موقف الناصح الواعظ فيهدي إلي الخلـق القويم والإيمان الصحيح ، ويدعو الناس إلي عمل الخير والبعـد عن الشر ويحثهم علي التمسك بأهداب الدين ويبشر المـؤمنين بالأجر العظيم فيقول :

---

(١) سراسـر مـال دنيـا سـوتنى بـى
نظـر ازمـال دنيـا دوتنـى بـى
غـم ودردى كـه دردل امـروز
براى روز حـشر انـد وتنـى بـى

(٢) بگورسـتان گـذر كـردم كـم وبـيش
بديـدم حـال دولتمنـد ودرويـش
نه درويشى بخـاكى بـى كفـن مانـد
نه دولتمند برد ازيـك كفـن بيـش

لا تعملي عملا يـصير حجـر عثـرة لقـدمك
ويكون العالم علي سعته ضـيقا فـي وجهـك
وعنـدما تقـرأ الملائكـة صـحيفتك
تكـون صـحيفتك مبعـث عـارك [1]

يقول :

ما أسـعد أولئـك الـذين يكـون الله ولـيهم
وتكون (قراءة) الفاتحة والإخـلاص عملهـم
وما أسـعد أولئـك الـذين يـديمون الـصلاة
إن جنات الخلد تكـون لهـم نعـم الجـزاء [2]

ويبدو بابا طاهر بمظهر المؤمن الصالح الذي يخـاف الله ويرهب عذاب النار ، فهو يذكر يوم البعث والحساب ويقر بأنـه عبد مذنب ويخشى أن يجازيه الله علي تلك الذنوب ، ويعبر عن الرعب الذي يتملك نفسه فيورد أوائل الآيات التي يفهم منها أن الله بالمرصاد لكل مذنب والله سوف يحاسبه علي كـل صـغيرة

---

(١) مكـن كـارى كـه برپـا سـنگت آيـد
جهـان بـاين فراخـى ننگـت آيـد
چوفردا نامه خواهـون نامـه خوانند
ترا ازنامـه خواند ن تنگت آيـد

(٢) خوشـا آنانكـه الله يارشـان بـى
كه حمـد وقـل هـوالله كارشـان بـى
خوشـا آنانكـه دايـم در نمازنـد
بهـشت جـاود ان بـازار شـان بـى

وكبيرة ، وهو بإقراره هذا بذنوبه يضرع إلـــي الله أن يرحمـــه ويرأف به ويقول إنه مع كل هذا الخوف الذي يهز قلبه لا يقـــنط من رحمة الله تعالي ، فهو بذلك يضرع إلي الله ويطلب الغفران من طرف خفي .

يقول :

أه من ذلك اليوم الذي يكون الله فيـــه قاضـــينا
حيث يكون مصيرنا علي الـــصراط المـــستقيم
يعبـــره الـــشيوخ والـــشباب كـــل فـــي دوره
أه من تلك اللحظة التي يأتي فيهـــا دورنـــا [١]

ويقول :

إننـــي أخـــشي مـــن " قـــالوا بلـــــــي "
لأن لي ذنوبا أكثر من أوراق الأشجار وقطرات المطر
إذا لم يمـــسك بيـــدي _ قولـــك _ لا تقنطـــوا "
فإني أخاف كل الخـــوف مـــن " يـــا ويلنـــا " [٢]

---

(١) وای از روزی که قاضی مـــان خـــدایو
ســـرپل صـــراطم مـــاجرا بـــو
بنوبـــت بگذرنـــد پیـــر وجوانـــان
وای از آندم که نوبـــت ز آن ما بـــو

(٢) مـــواز قـــالوبلی تـــشویش دیـــرم
گنـــه ازبـــرگ وبـــارون بوشـــی دیـــرم
اگـــــر لاتقنطودســـــتم نگیـــــره
موازیـــا ویلینـــا انـــدیش دیـــرم

وتتضح آراء بابا طاهر الصوفية من خـــلال رباعيتـــه ، فنراه يتحدث عن رغبته فى الخلاص من هذه الحياة حياة الفناء والبلاء ويؤثر أن يزايلها إلى الحياة الأخـــرى ، حيـــاة الخلـــود والبقاء . وهذا يدل على أنه يضرب على ذلك الوتر طالما ضرب عليه الصوفية ضربا خفياً وهم يرمزون بذلك إلى رغبـــتهم فـــى الخلاص من حياة العدم والفناء والرحيل إلى حياة الخلود والبقاء لأنهم يعتقدون أن الروح كانت فى عالمها العلوى ، ثم كان مـــن خطيئة آدم ما تسبب فى طرده من الجنة ، فهبط الإنسان إلى هذه الحياة الفانية الموحشة وسجنت روحه فى ذلك القفص الطينـــى الممقوت . وأمل الصوفى دائماً هو أن تنطلق روحه إلى مقرهـــا الأول لتفنى فى الذات الإلهية .

يقول :

ما أطيب ذلك اليوم الـــذى يـــضمنى فيـــه القبـــر
وأتوســـــــد الطـــــوب والطـــــين والأحجــــــار
وتكون أقدامى فى القبلة وروحى منطلقة فى الصحراء
وجســـــــــدى يحارب الثعابيـــــن والنمـــــل [1]

---

(١) خوش آنروزى كه قبـــرم ميكـــره ننـــگ
ببـــالين ســـرم خـــشت وگـــل وســـنگ
دو پـــا در قبلـــه وجـــان در بيابـــان
تنم بـــا مـــار ومـــوران ميكـــره جنـــگ

ويقول :

إن همـــوم قلبـــى لا تعـــد ولا تحـــصى
والله يعلـــم أن طـــائر قلبـــى " مـــشوى"
إننـــى أقبـــل يـــدك وســـاعدك أيهـــا الجـــلاد
فوالله لو تقتلنى يكـــون لـــك ثـــواب عظـــيم[1]

ويردد بابا طاهر فكرة طالما رددهـا الـصوفية وهـى أن الجمال الإنسانى مظهر للجمال الأزلى ، فنراه يـسبح بحمـد الله ويوحده ثم يذكر الجمال وأهل الجمال على أن الله هو الذى يهب الجمال للجميل فكأن الوجوه الصباح من جمال الله وكأن الحسن الإنسانى منبعث من الحسن الإلهى .

يقول :

كـــــريم مكانـــــه حيـــــث لا مكـــــان
وهـــو مـــانح الـــصفاء لجميـــع الحـــسان
وهـــو الـــذى يحفـــظ الخلـــق لـــيلا ونهـــارا
وهـــو الـــذى يـــرزق كـــل حـــى[2]

---

(١) غـــم درد دل مـــوبى حـــسابه
خـــدا زونـــه كـــه مـــرغ دل كبابـــه
بنـــازم دســـت وبـــازوى تـــه جـــلاد
اكـــر قـــتلم كـــرى والله ثوابـــه

(٢) كريمـــى كـــه مكـــانش لامكـــان بيـــى
صـــفا بخـــش تمـــام گلرخـــان بـــى
نگهـــدا رنـــده روز وشـــو خلـــق
بهـــر جنبنده روزى رســـان بـــى

ويصف لنا بابا طاهر مراحل التصوف فيشير إلى أن الصوفى فى أول عهده بالتصوف لا بد وأن يسلك مراحل متعاقبة متدرجة حتى يصل إلى الحقيقة ، ولابد له فى سلوكه أن يعتمد على غيره وأن يتبع أحد الشيوخ فيقتفى خطواته ويتزود بنصائحه ويهتدى بهديه ليتمكن من السير قدما فى طريق الحقيقة .

يقول :

ما أسعد أولئك الذين يرونك فى كل لحظة
ويتحدثون إليك ويجلسون معك
إذا لم تكن لدى القوة لأن أجيئ لرؤيتك ،
فسوف أذهب لأرى أولئك الذين يرونك[1]

ثم يسوق لنا وصفاً رائعاً للصوفى وهو يمشى فى طريقه الذى تكتنفه المخاوف والمخاطر ، ذلك الطريق الذى درج الصوفية جميعاً على وصفه بأنه طريق شاق تحوطه المصاعب والأهوال وتحف به المهالك والمصاعب التى لا يزال السالك يكابدها حتى يصل فى النهاية إلى غايته القصوى وهى الفناء فى الله .

---

(١) خرم آنان كه هر زمان وبنن
سخون واته كرن نشينن
گرم پابى نه بى كايم ته وبنم
بشم آنون بوينم كه ته وبنن

يقول :

أيها القلب، إن طريقك مملوء بالأشواك والعوائق
ومكـــان عبـــورك علــى أوج الفلـــك
إذا كان الجلد يسلخ مـن يـدك عـن الجـسد
فاقـــذف بـــه لكــي تخفـــف أحمالـــك [1]

ويدعو بابا طاهر إلى سلوك الطريق والجـد فــى الطلــب والصمود فى طريق العشق مهما اكتنفه من الصعاب والأهوال ، ويندد بالعاجزين الذين يقعدون عن التماس عالم الروح وبلــوغ مقام العشق الإلهى ، ويمجد الآلام التى يعانيها العاشق فى سبيل الوصول إلى المعشوق والفناء فيه .

فيقول :

أولـــى بالقلـــب الـــذى لا يعـــشق أن يعـــصر
وأولـــى بالـــذى لا يكابـــد الألـــم أن يمـــوت
والجسد الذى لا يـصمد فــى طريــق العـشق
أولى بـــه أن يحـــرق بالنـــار ذرة بعـــد ذرة[2]

---

(١) دلا راه تـــه پرخـــار وخـــسك بـــى
گـــذرگاه تـــه بـــراوج فلـــك بـــى
گرازدســـتت بـــر آيوپوســـت از تـــن
برافكن تاكـــه بارت كمتـــرك بـــى

(٢) دل بـــى عـــشق را افـــسردن اولـــى
هركه دردى نـــداره مـــرد فـــان اولـــى
تنـــى كـــه نيـــست ثابـــت دروه عـــشق
ذره ذره بآتشـــى ســـوختن اولـــى

ويقول :

كل شخص يكون عاشقا لا يخشى على نفسه
فالعاشق لا يخشى المصاعب ولا السجن
وقلب العاشق ذئب جائع
والذئب لا يخشى صوت الراعي[١]

ويستعمل بابا طاهر اللسان المرموز فى تصوير افتنانه بالمعشوق وما يعانيه من لوعة الهوى وعذاب الهيام وما يكايده من القلق والاضطراب .

فيقول :

أيتها الزهرة ، إننى مفتون برائحة طرتك
وقلبى مجروح من لون وجهك
أنا عاشق ولا قرار لى بسبب عشقك
لأنك مثل ليلى وأنا المجنون أيتها الزهرة [٢]

---

(١) هرآنكس عاشق است ازجان نترسد
عاشق ازكنده وزندون نترسد
دل عاشق بود گرك گرسنه
كه گرك ازهى هى چوپزن نترسد

(٢) زبوى زلف ته مفتونم اى گل
زرنگ روى ته دلخونم اى گل
من عاشق زعشقت بى قرارم
توچون ليلى ومن مجنونم اى گل

ويشير بابا طاهر إلى نظرية الاتحاد عند الصوفية ، فهم يعتقدون أن التصوف مراحل يقطعها الصوفى ولا يزال يتدرج من مرحلة إلى مرحلة حتى يصل إلى مرحلة الفناء والاتحاد بالله وفى هذه الدرجة تتلاشى شخصية الطالب وتختلط بشخصية المطلوب (أى الله) فيصبح الله سمعه وبصره ولسانه ويده وفى هذه الحالة تختلط الأشياء فلا يعرف من يكون العاشق ومن يكون المعشوق .

يقول :

إذا كان القلب هو الحبيب فمن يكون المحبوب ؟
وإذا كان الحبيب هو القلب فماذا يكون اسم القلب ؟
أرى القلب والحبيب قد امتزجا
فلا أعرف أيهما القلب وأيهما الحبيب[1]

يقول :

ما أسعد أولئك الذين لا يعرفون الروح من الجسد
ولا يفرقون الروح من الحبيب ولا الحبيب من الروح
يتعودون على آلامه سنين وشهوراً
ولا يعرفون دواء لآلامهم[2]

---

(١) اگر دل دلبره دلبر كدومه
وگر دلبر دله دل راچه نومه
دل ودلبر بهم آميته وبنم
ندونم دل كه ودلبر كدومه

(٢) خرم آنان كه ازتن جان ندونند
زجانان جان زجان جانان ندونند
بدردش خوكرن سالان وماهان
بدرد خويشتن درمان ندانند

ويحلم بابا طاهر بالفناء فى المعشوق فيصف احتراقه بنار العشق ويصور الفناء التام الذى يحلم بـــه الـــصوفى الواصـــل فيصف نفسه بأنه قد احترق حتى لم يعد يظهر أثر لرماده .

يقول :

فلأمــــت حتـــى لا تـــرى عيونــــا دامعـــة
ولا تـــــرى شــــرارة نــــار التأوهــــات
إننـــى أحتــــرق مــــن نيــــران عــــشقك
حتـــى أنــــك لا تـــرى لــــون رمـــادى (١)

وفى هذا مبالغة فى وصف الفناء التام فى الذات الإلهية ، ذلك الفناء الذى يرى فيه بابا طــاهر الــدواء الوحيــد الــشافى لآلامه.

يقول :

إن همـــوم الفلـــك مـــن نـــصيب روحـــى
وتحرير هذه الــروح يحتــاج إلــى الكيميــاء
إن ألم كل شخص يصل فى النهاية إلى عــلاج
ولكـــن دواء قلبـــى هـــو الفنـــاء (٢)

---

(١) يميـــرم تأتـــه چـــشم ترنـــوينى
شـــرار آه بـــر آذر نـــوينى
چنـــان ازآتـــش عـــشقت بـــسوجم
كه از مورنگ خاكســـتر نوينـــى

(٢) غـــم دوران نـــصيب جـــان مـــايى
زدرد مافراغـــت كيميـــا يـــى
رســـه آخـــر بـــدرمون درد هـــر كـــس
دل مـــابى كـــه در مـــونش فنـــايى

" بابا طاهر بين أشهر شعراء الرباعيات "

سبق أن ذكرنا أن بابا طاهر العريان هو أحد شعراء أربعة تخصصوا فى الرباعى واعتمدت شهرتهم على هذا الفن دون غيره من الفنون الشعرية الأخرى . وهؤلاء الشعراء الأربعة هم:

أبو سعيد بن أبى الخير
بابا طاهر العريان الهمدانى
الشيخ عبد الله الأنصارى
عمر الخيام

ولا شك أنه إذا أردانا أن نتعرف على مكانة بابا طاهر بين هؤلاء الشعراء فإنه ينبغى علينا أن نعقد موازنة بينه وبينهم لكى نتبين أوجه الشبه والخلاف بين بابا طاهر وبين هؤلاء الشعراء والمميزات التى انفرد بها بابا طاهر دون زملائه سواء من ناحية الأسلوب أو المعانى التى طرقها ، ومبلغ توفيقه فى ابتكار المعانى والتشبيهات والصور الشعرية .

وإذا تعرضنا أولا للموازنة بين بابا طاهر وأبى سعيد بن أبى الخير وجدنا أن النظرة الأولى إلى رباعيات كل منهما تكفى للدلالة على أن أبا سعيد يغوص فى أعمق المعانى الصوفية ، فمعانيه بعيدة دائماً كما أننا لا نقع فى رباعياته على تلك الصور الشعرية الجميلة التى نصادفها كثيراً فى رباعيات بابا طاهر . فشعر أبى سعيد فيه شئ من الجفاف الذى يتعارض تعارضاً ظاهراً مع سلاسة أشعار بابا طاهر ورقتها وتلك المعانى القريبة

التى تبدو فى ظاهر ألفاظه وتلك الصور الشعرية الأخـــاذة التـــى تجعل لشعره روعة فنية ساحرة .

ويتضح هذا الرأى إذا استعرضـــنا هـــاتين الربـــاعيتين ، الأولى لبابا طاهر ، يقول :

مادامت لك هـــذه العيـــون الحالمـــة المكتحلـــة
ومادامت لك هذه القامة الممشوقة التى تسلب القلب
ومادمت جدائلك العنبرية تنـــساب علـــى ظهـــرك
فكيف تسألنى بعد هذا : لماذا أنت حـــائر تائـــه ؟[1]

والثانية لابى سعيد ، يقول :

منـــذ رأيـــت وجهـــك يـــاحبيبى الجميـــل
لا أفعـــل شـــيئا ، فـــلا أصـــوم ولا أصـــلى
وعندما أكون معك يكون مجازى كلـــه صـــلاة
وتكـــون صـــلاتى كلهـــا مجـــازا[2]

---

(١) ته كت نازنده چـشمون سـرمه سـايه
تـــه كـــت بالنـــده بـــالادل ربابـــه
تـــه كـــت مـــشكينه گيرســـود برقفايـــه
بـــى واجن كه سر گردون چرايـــه

(٢) تـــاروى تـــرا بديـــدم اى شـــمع طـــراز
نى كار كنم ، نه روزه داوم نـــه نمـــاز
جون باتوبوم مجاز مـــن جملـــه نمـــاز
جون باتوبوم نماز مـــن جملـــه مجـــاز

فشعر أبى سعيد شعر صوفى لا يصلح إلا ليكون صوفياً ، أما شعر بابا طاهر فإنه يصلح لأن يكون صوفياً كما يمكن أن يؤول تأويلا آخر ليكون غزلا إنسانياً واقعياً .

على أن الشاعرين يشتركان فى طرق بعض المعانى الصوفية كما يبدو من قول بابا طاهر :

فلأمت حتى لا ترى عيونا دامعة
ولاترى شرارة نار التاوهات
إننى أحترق بنيران عشقك
حتى أنك لا ترى لون رمادى (١)

فهذه الرباعية التى يصف فيها بابا طاهر احتراقه بنار العشق يذكر فيها الفناء التام الذى يحلم به الصوفى الواصل ، فهو يريد أن يحترق حتى لا يظهر أثر لرماده ، وهذه مبالغة وإغراق فى وصف الفناء التام ذلك الفناء الذى يذكرنا بقول أبى سعيد :

---

(١) بميرم تاته چشم تر نوينى
شرار آه بر آذر نوينى
چنان ازاتشى عشقت بسوجم
كه از مورنگ خاكستر نوينى

إن جسدى كله دموع وقد بكت عيونى
فيجب أن يعيش العاشق فى عشقك بدون عيون
لم يبق منى أثر فمم يكون هذا العشق
ومادمت قد أصبحت المعشوق فمن يكون العاشق [1]

وإذا تركنا أبا سعيد إلى أبى عبد الله الأنصارى نجد أنه فى منزلة بين المنزلتين ، فهو ليس له عمق وغموض أبى سعيد ولا سلاسة وبساطة بابا طاهر .

على أننا نجد فى بعض رباعياته ما يذكرنا بدأب بابا طاهر فى المبالغة وتوفيقه فيها كما يبدو من هاتين الرباعيتين :
الأولى لبابا طاهر ، يقول :

إن النسائم التى تفوح من شعرك المسترسل
تطيب لى أكثر من رائحة السنبل
وعندما أضم خيالك إلى صدرى فى الليل
تفوح رائحة الورود من فراشى فى وقت السحر [2]

---

(١) جسم همه اشك است وچشم بگريست
در عشق توبى جشم همه بايد زيست
از من اثرى نماند اين عشق زچيست
چون من همه معشوق شدم عاشق كيست

(٢) نسيمى كزين آن كاكل آيو
مراخوشتر زبوى سنبل آيو
چوشو گيرم خيالت رادرآغوش
سحر از پسترم بوى گل آيو

والثانية لأبى عبدالله ، يقول :

إننى احترق من الهجر ومن الخجل عندما أتخيل الهجر
كما أحترق من الوصل خوفا من زواله
وهكذا يكون حال الفراشة مع الشمعة
فهى تحترق فى الهجر وتحترق فى الوصل [1]

فبابا طاهر فى رباعيته يحدثنا كيف أنه تخيل طيفاً للحبيب فى فراشه وكيف أنه بعد انصراف هذا الطيف يشم عطر الحبيب فى مخدعه .

وأبو عبد الله ينحو منحى بابا طاهر فى المبالغة فيقول إنه يحترق من الهجر ويحترق من الخجل عندما يتخيل هذا الهجر كما يحترق من الوصل ومن الهجر مثل الفراشة ، فهذه الطريقة الجميلة فى التعبير تشبه طريقة بابا طاهر

أما هذه الرباعية التى يقول فيها أبو عبدالله :

---

(١) از هجر همى سوزم از شرم خيال
در وصل همى سوزم از بيم زوال
پروانه شمع راچنين باشد حال
در هجر بسوزد وبسوزن وصال

في عشقك أكون ذليلا تارة ومنتشياً تارة أخرى
وفي ذكرك أفنى تارة وأحيا تارة أخرى
إذا لم تأخذ بيدي في ذلي ونشوتي
فسوف أقع كلية أيها الحبيب (١)

فإننا نجد فيها روح التضرع التي تصادفها كثيراً عند بابا طاهر ، فأبو عبدالله في هذه الرباعية يصف ضعفه أمام قوة الله وذلته أمام عزة الخالق ثم يسأله بعد ذلك أن يأخذ بيده ويمده بروح من عنده ، وفي هذا ما يذكرنا بقول بابا طاهر :

يا إلهي من أنا ؟........ومن أكون ؟
وإلام تمتلئ أهدابي بالدموع الدامية ؟
إن الجميع يبعدونني عن ديارهم فأتجه إليك
وإذا كنت تبعدني عن بابك فإلى أين أذهب ؟(٢)

---

(١) در عشق توگه بست گه مست شوم
وزياد توگه نيست گه هست شوم
دربستى ومستى ارنگيرى دستم
يكبارگى اى نگار ازدست شوم

(٢) خداوندا كه بوشم باكه بوشم
مژه پراشك خونين تاكه بوشم
همه كز در برانن سوته آيم
توكم ازدر براني واكه بوشم

ويشترك الشعراء الثلاثة فى طرق ذلك المعنى الذى درج الصوفية على طرقه وهو القول بوحدة الأديان ، فهم لا يفرقون بين دين ودين ، لأنهم ليسوا أهل طريقة وإنما هم أهل حقيقة ، ويريدون أن يعرفوا الحقيقة ويصلوا إلى الفناء فى الله بأية وسيلة ، والأديان جميعا لديهم سواء وأماكن العبادة عندهم فى مقام واحد ، فهم لا يفرقون بين بيعة اليهود ولا كعبة المسلمين ولا معبد الوثنيين ولا دير النصارى لأنها فى نظرهم بمنزلة سواء ، مادام الحبيب – أى الله – فيها .

يقول بابا طاهر :

إذا كنت أشد السكارى سكراً فمنك يكون الإيمان
وإذا كنت عاجزاً فمنك يكون الإيمان
وإذا كنت عابداً للأصنام أو هندياً أو مسلماً
ففى كل ملة أكونها ؛ منك يكون الإيمان [1]

---

(١) اگر مستان منم ازته ايمان
وكربى پا و دستم ازته ايمان
اگر گبريم وهندو ور مسلمان
بهر ملت كه هستم ازته ايمان

ويقول أبو سعيد :

هنـــــاك حيــــث تكــــون عنايــــة الله
يكــــون العــــشق نهايــــة أمــــر الزاهــــد
وهنـــاك حيــــث يكــــون قهــــر الكبريــــاء
يكـــــون الـــــساجد نــــصرانياً (١)

ويقول أبو عبد الله :

إننى ثمل بك فلا حاجة إلــى الخمــر والكــأس
كما أننى صيدك فلا حاجة إلــى الحبــة والفــخ
إن مقصودى من الكعبة ومعبد الأصنام هو أنت
وإلا لتحــررت مــن هــذين المقــامين(٢)

---

(١) آنجـا كـــه عنايــت خـــدائى باشـــد
عـــشق آخـــر كـــار بارســائى باشـــد
وآنجـــا كـــه قهـــر كبريـــائى باشـــد
ســـجاده نشـــين كليسائى باشـــد

(٢) مـــست تـــوام از بـــاده وجـــام آزادم
صـــيد تـــوام ازدانـــه ودام آزادم
مقصود مـــن ازكعبـــة وبتخانـــه تـــوئى
ورنه من ازايـــن هـــر دو مقـــام آزادم

ويقول بابا طاهر :

ما أسعد أولئك الذين لا يعرفون رؤوسهم من أقدامهم
ولا يفرقـــون بـــين الجـــاف والرطـــب
ولا يعرفون فى البيعة والكعبة ومعبـد الأصـنام
والـــدير ، قـــصرا خاليـــا مـــن الحبيـــب [1]

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى عمر الخيام نجد أن هنـاك تباينـا كبيرا بينه وبين بابا طاهر . فبابا طاهر فى رباعياته يبدو رجـلا زاهدا متعبدا ويدعو إلى الزهد والانصراف تماماً عن متع الدنيا ولذائذها أملا فى أن ينال المثوبة فى الآخرة وهو يـؤمن بـالله إيماناً قوياً ويعتقد اعتقاداً راسخاً فى البعث والنشور.

وعلى العكس من ذلك تماماً نجد الخيام رجلاً عابثاً يـدعو إلى التهالك على الملذات ويرى أن السعادة هى الغاية المثلى من الوجود ، كما يبدو متشككا يسخر من الفقهاء تارة ويتهكم علـى الصوفية تارة أخرى ويقول ما يؤخذ منه أنه رقيق الإيمان فهـو لا يؤمن بشئ من عذاب الله ونعيمه وحسابه وآخرتـه ويظهـر تشككا فى كل هذا .

---

(١) خوشـــا آنونكـــه از پاســـر ندوننـــد
ميـــان شـــعله خـــشك وتـــر ندوننـــد
كنـــشت وكعبـــه وبتخانـــه وديـــر
ســـرائى خـــالى از دلبـــر ندوننـــد

ورغم ما يذهب إليه البعض من أن الخيام كان رجلاً صوفياً وأن الخمر التى طالما تغنى بها ما هى إلا خمر معنوية ، إلا أنه على أصح الآراء لم يكن صوفياً على الأطلاق وإن كان يصطنع لغة الصوفية فى الرمز والإيماء لأن هذه الطريقة هى التى كانت سائدة فى عصره .

ويبدو التباين بين الشاعرين من هاتين الرباعيتين :

الأولى لبابا طاهر يقول :

إن جميع متاع الدنيا مآله إلى العدم والفناء
فاقطع نظرك عن متاع الدنيا
إن الهموم والآلام التى فى قلبك اليوم
هى ذخيرتك ليوم الحشر[1]

والثانية للخيام ، يقول :

لم هذا الغم من أجل المال ، والحسرة من أجل الدنيا
أرأيت أحدا قط عاش خالدا فيها
إن هذه الأنفاس التى فى بدنك ما هى إلا وديعة
فينبغى أن تعيش مع الوديعة كالوديعة [2]

---

(١) سراسر مال دنيا سوتنى بى
نظر از مال دنيا دوتنى بى
غم ودردى كه در دل أمروز
براى روز حشر اندو تنى بى

(٢) چندين غم مال وحسرت دنيا چيست
هرگز ديدى كسيكه جاويد بزيست
اين يكدو نفس درتن توعاريت است
باعاريتى ، عاريتى بايد زيست

فعلى الرغم من أن الشاعرين يطرقان معنى واحداً ويتفقان على أن هذه الدنيا لا خير فيها وأنها إلى فناء وأن العمر فيها محدود والعاقل هو الذى لا يأبه بها ولا بمتاعها ، إلا أنهما يختلفان فى الرأى بعد ذلك فنجد الخيام يعجب ويتساءل عن هذا الحزن من أجل المال والحسرة على الدنيا وكأنه بذلك يدعو إلى عدم الحزن عليها وعدم الاكتراث بأى شئ فيها ويفهم من هذا أنه يدعو إلى البهجة والسرور ونسيان هموم الدنيا وأحزانها .

أما بابا طاهر فهو إذا ذكر هذا من صفة الدنيا فإنه لا يدعو إلى نبذها ولا ينصح بعدم التحسر عليها وطرح آلامها وأحزنها ، بل إنه يكاد يمتدح هذه الآلام والأحزان لأنه يعتبرها ذخراً للمؤمنين يثابون عليه فى يوم الدين فكأنه بذلك يدعوهم إلى الحزن فى الدنيا ليجزل الله لهم العطاء فى الآخرة .

ولكن الخيام لا يحبذ هذا الحزن ولا يراه نافعاً فيدعو إلى البهجة فى الدنيا وإلى همومها والآمها برشفة من الصهباء وجلسة مع الحسناء ، فيقول :

اهنأ يا خيــام إذا ثملــت مــن نــشوة الخمــر
واهنأ إذا جلست مــع ذوات الوجــه القمــرى
إذا كانـــت عاقبـــة الـــدنيا هـــى الفنـــاء
فـــافترض فنـــاءك وعـــش نـــاعم البـــال (١)

ويزداد الخلاف وضــوحا بــين الــشاعرين فــى هــاتين الرباعيتين ، الأولى لبابا طاهر يقول :

آه من ذلــك اليــوم الــذى فيــه الله قاضــيناً
حيث يكون مسيرنا علــى الــصراط المــستقيم
يعبــره الــشيب والــشباب كــل فــى دوره
آه من تلك اللحظة التى يأتى فيهــا دورنـــا (٢)

---

(١) خيام اگر زبـاده مـستى خـوش بـاش
باماه رخى اگر نشـستى خـوش بـاش
چون عاقبت كار جهـان نيـستى اسـت
انگاركه نينى چوهـستى خـوش بـاش

(٢) واى از روزى كه قاضى مـان خـدايو
سـرپل صـراطم مـاجرا يـو
بنوبـت بگذرنـد پيـر وجوانـان
واى از آنـدم كه نوبت زآن مايـو

الثانية للخيام يقول :

قالوا سوف يكون هناك حساب يوم الحشر
وسوف يضيق صدر الحبيب في ذلك اليوم
هل يكون من الجميل سوى شئ جميل
فهنأ إذن لأن العاقبة ستكون طيبة [1]

فالخيام فى رباعيته يبدو رجلا متهالكا على اللذة متهافتا على المرح وقد جعله انغماسه فى المتع مرحا متفائلا لا ينظر إلا إلى الجانب الباسم فى الحياة حتى إنه إذا ذكر أهوال القيامة وما سوف يلقاه أمثاله من هول العذاب ، التمس بتفاؤله مخرجا لنفسه فيقول إن الله لا يمكن أن يصدر عنه إلا الخير ، وعلى هذا فلن يصيبه من الله مكروه قط ولذلك فهو يترك لنفسه العنان لتنال ما تصبو إليه من أنواع المتع والملذات .

أما بابا طاهر فيبدو رجلاً زاهداً عابداً يخاف الله ويرهب عذابه ، ورغم أنه من أهل التقوى والإيمان إلا أنه لا يثق فى نفسه مع كل هذا ويغلب عليه الخوف والتشاؤم فيخشى يوم الحساب ويرهب عذاب النار وكان الأولى بمثل الخيام أن يخشى ذلك : ولكن الفرق البعيد بين مسلك الرجلين فى الحياة هو الذى أوجد الفرق بين نفسيتيهما وشعورهما وشعرهما .

---

(١) گويند بحشر جستجو خواهد بود
وآن يار عزيز تندخو خواهد بود
ازنيكى محض جزء نكوئى نابد
خوش باش كه عاقبت نكو خواهد بود

ويتضح التناقض بين الشاعرين فى صورة أقـوى عنـدما نستعرض هاتين الرباعيتين :

الأولى لبابا طاهر يقول :

أنا ذلك النمل الذى لا يعرف رأسه مـن قدمـه
ولا يعـرف شـيئا سـوى المحبـوب
والمحبـوب الـذى يـريح قلبـى
لا يكـون سـوى سـاقى الكـوثر [1]

والثانية للخيام ، ويقول :

يقـال إن هنـاك جنـة وحـور وكـوثر
وهناك خمر صـافية ولـبن وعـسل مـصفى
اعطنى أيها الساقى كأسا علـى ذكـرى ذلـك
لأن نقداً واحداً فى اليد خير من ألف مرتقـب[2]

---

(١) مـرآن مـستم كـه پـا زسـر نـزونم
سـر وپـائى بجـز دليـر نـزونم
دلارامـى كـز او گيـرد دل آرام
بغيـر از سـاقى كـوثر نـزونم

(٢) گويند بهـشت وحـور وكـوثر باشـد
وآنجا مى نـاب وشـير وشـكر باشـد
يـك جـام بـده بيـاد آن اى سـاقى
نقـدى زهـزار نـسيه بهتـر باشـد

فالخيام كدأبه يسترسل فى تهكمه المرير وتــشككه فـــى البعث والدار الآخرة ، فهو لا يصدق أن هناك خمرا فى الآخـــرة وإذا قيل له ذلك شبهه بقول الغريم الذى يماطل فى دفع الـــدين فهو لا يصدق مثل هذه الأقوال ولا يصدق إلا ما تـــراه عينـــه ، وعلى هذا فهو لا يريد أن يصبر إلى يوم القيامة ليشرب الخمـــر فى الجنة وإنما يهرع إلى شربها فى الدنيا لأنه يتشكك فى وجود مثل ذلك اليوم .

أما بابا طاهر فهو يؤمن بالبعث إيماناً راسخاً ولا يتـــشكك فيه مطلقاً وهو يحرم الخمر على نفسه فى الدنيا ويأمل فـــى أن يشربها فى الجنة ، فخمر بابا طاهر فى الدنيا خمر إلهية تفعـــم قلبه بنشوة الإيمان وتقربه من ربه وتدخله فى زمرة المـــؤمنين الذين يحرمونها على أنفسهم فى الدنيا لينعمـــوا بـــشربها فـــى الآخرة .

وعلى الرغم من هذا الاختلاف الشديد بين الشاعرين سواء فى آرائهما أو مسلكهما فى الحياة ، ذلك الاختلاف الذى أوجـــد تباينا كبيرا بين أشعارهما فإننا نعثر على بعض الرباعيات التـــى يقترب فيها الواحد منهما من الآخر فى طرق بعـــض المعـــانى وطريقة أدائها كما يبدو من هاتين الرباعيتين .

الأولى لبابا طاهر يقول :

إن الأجل ألم ليس له علاج
وأمره يسرى على الملوك والوزراء
فالملك الذى كان بالأمس يأكل خراج كرمان
أصبح اليوم طعاما للديدان [١]

والثانية للخيام ، يقول :

ذلك القصر الذى طالما تمتع فيه بهرام بشرب الخمر
صار مكمناً للظباء وابن آوى
إن بهرام الذى كان يصيد حمار الوحش
تأمل كيف اصطاده القبر ![٢]

---

(١) درديست اجل كه نيست درمان اورا
برشاه ووزير هست فرمان اورا
شاهى كه بحكم دوش كرمان ميخورد
امروز همين خورند كرمان اورا

(٢) آن قصر كه بهرام دراوجام گرفت
آهو پچه گرد وروپه آرام گرفت
بهرام كه گور ميگرفت همه عمر
ديدى كه چگونه گور بهرام گرفت

فالتورية التى عمد إليها الخيام فى كلمة " گور " بمعنــى حمار الوحش أو قبر تشبه التورية التى استعملها بابا طاهر فى كلمة " كرمان " بمعنى اقليم كرمان وبمعنى الدود " فبابا طــاهر يقول إن الملك الذى كان يأكل خير كرمان أصبحت الديدان هــى التى تأكله ، والخيام يقول ان بهرام الذى كــان يــصيد حمــار الوحش أصبح صيداً للقبر . فالشاعران يطرقان معنى واحــداً . كما يتشابهان فى طريقة أداء ذلك المعنى . ولا شك أن احــدهما تأثر بالأخر ، ومن المرجح أن الخيام هو الذى تأثر ببابا طــاهر لأن بابا طاهر يسبقه زمنياً .

أما هذه الرباعية التي يتشبه فيها بابا طاهر بالخيام ويقول :

أنا ذلك الدرويش الذي مهنته العــصيان
أمسكنا الكأس بيد والزجاجــة بــالأخرى
إذا كنت بلا ذنب فأذهــب فإنــك مــلاك
ولكننــــي مـــن نـــسل أدم وحـــواء[1]

---

(١) مـــرآن رنـــدم كـــه عـــصيان پيـــشه
بدســتى جــام ودســتى شيــشه ديــرم
اگرتـــه بـــى گنـــاهى روملـــك شـــو
مـــــرا ز حـــوا وآدم ريشه ديـــرم

فمن المرجح أنها مدسوسة علي بابا طـــاهر أو منحولـــة لأنها في معانيها غريبة عليه بعيدة عن مذهبه ، لأنه حتى وهو يصطنع لغة الصوفية ويذهب مذهبهم في الرمز والإيماء لا يكثر من أوصاف الخمر والسكر والعصيان ، لذا فإن هـــذه الرباعيـــة التي يجاهر فيها بعصيانه لا شك أنها منحولـــة وهـــي تـــذكرنا برباعية لعمر الخيام يقول فيها :

لا تـــسلك غيـــر طريـــق دراويـــش الحانـــة
ولا تطلب غير الخمـــر والـــسماع والمحبـــوب
ليكن في يـــدك القـــدح وعلـــي كتفـــك الجـــرة
واشرب الخمر أيها الحبيب وكف عن الهذيان(١)

ولا شك أن مميزات شعر بابا طاهر التي تبعث في الناس المتعة والسرور هي ما تلمسه في شعره من عاطفة متوقدة قوية عبر عنها بأسلوب سهل بسيط لا يخلو من خيال مبتكر .

وتنقسم رباعيات بابا طاهر إلي نوعين من أنواع الـــشعر الغنائي ولعله من العسير أن نضع حدودا فاصلة نميز بها بـــين العبارات الصوفية وعبارات الحب الإنساني لأن شعراء الصوفية

---

(١) جـــز راه قلنـــدران ميخانـــه مپـــوى
جزباده وجز سماع وجـــز يـــار مجـــوى
در كتف قدح بـــاده وبـــر دوش ســـبوى
مى نوش كه اى نگار وبيهوده مگـــوى

استعملوا نفس الألفاظ والتعبيرات التي استعملها الشعراء المتغزلون حتى أن القارئ يحتار بين أشعار العشق العادي والعشق المجازي .

وتتضح سمات شاعرية بابا طاهر في رباعياته فهو يبدو شاعراً غنائياً في أشعاره فنراه إذا تصدي لوصف منظر من المناظر لا يصفه وصفاً سطحياً وإنما يصفه من حيث تأثره به فيري به ما لا يراه غيره .

إن قلبي ميال إلي زهور حديقتك
وصدري كله محترق بنيران حبك
وأود أن أذهب إلي حديقة الشقائق لأسعد قلبي
ولكن واسفاه .. إن الشقائق مجروحة مثلي[1]

فهو في هذه الرباعية يشعر بالتجاوب بين نفسه المحزونة وبين زهرة الشقائق حتى أن هذه النفس المتألمة تشع الحزن والألم علي تلك الزهرة فتجعلها جريحة مثله .

ولبابا طاهر حذق كبير في توفيق المعاني والتوفيق في تشبيهاته .

---

(١) دل ميل گل باغ ته ديره
سراسر سيئه داغ ته ديره
پشم الا له زارآن دل كرم شاد
ديم الا له هم داغ ته ديره

يقول :

لـــي قلـــب مثـــل الطـــائر المكـــسور الـــساق
وهو كالسفينة المعطلـــة علـــي شـــاطئ البحـــر
الجميع يقولون يا طـــاهر أعـــزف علـــي الـــوتر
ولكن كيف ينبعث الصوت من الوتر المقطوع [1]

فهو في هذه الرباعية يشبه قلبه بالطائر الجريح وبالقارب المحطم ، ثم يزيد تشبيها ثالثا لنفسه فيشبهها بالوتر المقطـوع مبالغة في وصفها بالنحول والضعف وهذه تـشبيهات رائعـة لا تصادفها كثيراً عند غيره من شعراء الرباعيات ، فهـي ليـست صوراً شعرية أكثر الشعراء من تناولها حتـى أصـبحت معـادة مبتذلة .

ولبابا طاهر قدرة كبيرة علي تجسيم الخيال وإفراغ الألوان الزاهية علي الصور الشعرية – يقول :

---

(١) دلـى ديـرم چـو مـرغ پـا شكـسته
چـو كـشتى برلـب دريـا نشـسته
همـه گـوين كـه طـاهر تـار بنـواز
صـدا چـون ميدهـد تـار گسـسته

إن النسائم التي تفوح من شــعرك المــسترسل
تطيــب لـــي أكثـــر مـــن رائحـــة الـــسنبل
وعندما أضم خيالك فـــي الليـــل إلـــي صـــدري
تفوح رائحة الورود من فراشي في وقت السحر (١)

فهو في هذه الرباعية يتخيل طيفا للحبيــب ويمعــن فــي التخيل إلي أبعد مدي حتى ينسي أنه أمام طيف ويتوهم أنه أمام إنسان ملء العين والقلب ، أما تلك المرأة العطرة التـــي تغـــادر بيته فلا يغادره معها عطرها ، فهذا العطر وهو غير ملموس ولا منظور نجده عند هذا الشاعر يبقي آثرا لهذا الحبيب بعد مغادرته للدار . وهذا القول يدل دلالة أكيدة علي تلك المقدرة الفائقة التي تجعل بابا طاهر يخلق من الخيال حقيقة ومن الأطيـــاف صـــورا حية وهذا مالا نجده عند غيره من الشعراء .

---

(١) نسيمى كزين آن كاكــل آيـــــــــو
مرا خوشتر زبـــوي ســـنبل آيـــــو
چـــو شـــوگيرم خيالـــت رادر آغـــوش
سحر از بسترم بوي گــل آيـــــــــو

ويوفق بابا طاهر كثيرا في البديع ومن المقطـوع بـه أن البديع فن قد يوفق فيه الشاعر أو لا يوفق .

يقول :

إن عـــشقك لا يبـــارح قلبـــي
ولم أتحدث عن هموم عـشقك إلـي شـخص
ولكـــن لهيـــب الحـــب والمحبـــة
لا يكـــون خاليـــا بـــين النـــاس (1)

ففي هذه الرباعية تري بابا طاهر يحسن استعمال كلمة " مهر " بمعني وجه أو شمس فتراه موفقا في هذا كل التوفيـق ، لأن الشمس لا تخفي علي الناس ولأن الحب العنيـف لا يخفـي علي الناس أيضا ولو جهد العاشق أن يخفيه .

كما يوفق بابا طاهر أيضا في ابتكارالمعـاني والتـشبيهات كما يبدو من قوله :

---

(١) زدل مهـر رخ تـو رفتنـي نـــي
غم عشقت بهـركس گفتنـي نـــي
وليكـي سـوزش مهـر وصـحبت
ميان مرديـون بنهفتنـي نـــي

إن عشقك يلهب روحي
ويجعل من جسدي حفنة للرماد
ولو قطعوا غصن حبك من قلبي
لظهرت في كل ركن منه آلاف الأغصان (١)

ففي هذه الرباعية معني مبتكر ، فهو يشبه تجدد الحب بتجدد نمو النبات بعد تقليم أغصانه وتشبيه المحبة بالأغصان تشبيه جميل لما يقترن في الخيال بتلك الأغصان من أزهار وأطيار وتفتح وازدهارٍ وذبولٍ ، وكل هذه الصور تصور حركات العاشق تصويراً رمزياً جميلا.

يقول :

لي قلب مفتون يخلص الود لك
وعندما أطبق جفوني تنحدر سيول الدمع
وقلب العاشق مثل الغصن الرطب
الذي يحترق من طرف وينزف من الأخر (٢)

---

(١) مرا عشقت زجان آذربر آره
زپيكر مشت خاكستر برآره
نهال مهرت از دل گربيرن
هزاران شاخ هر سو سربر آره

(٢) دلي ديرم زعشقت گير وويژه
مژه برهم زنم سيلابه خيژه
دل عاشق مثال چوب تريي
سري سوزه سري خونابه ريژه

ففي هذه الرباعية تشبيه عجيب للغصن إذا احترق لأن المشاهد أن الغصن الرطب إذا احترق سال منه سائل والواقع أن هذا تشبيه نادر مبتكر .

وتبدو براعة بابا طاهر في توفيقه في الصور الشعرية البسيطة التي تأسر القلب ببساطتها ورقتها ، وفي التجديد في التشبيهات المألوفة التي يخلع عليها صوراً رائعة أخاذه .

يقول :

أين أنت يا حبيبي الناضر الشباب
أين أنت بعيونك المكتحلة
إن الأنفاس وصلت إلي صدر طاهر
فأين أنت يا عزيزي في وقت الموت(١)

ففي هذه الرباعية صورة شعرية جميلة للحبيب ، وهي صورة تصلح لأن تكون إنسانية ، فهذا الحبيب في نضرة الصبا وله عينان مكحولتان ، والشاعر يشتاق إليه وإلي نظرة من عينيه قبل أن يموت ، فهو يقول إنه كاد يموت عشقاً ومناه أن ينظر إلي عينى الحبيب قبل موته . وهذه صورة حية مؤثرة على سذاجتها فإن للبساطة أحياناً حسناً يحار المرء في تعليله .

---

(١) نگار تازه خيز موكجائي
يچشمان سرمه ريز موكجائي
نفس بر سينه طاهر رسيده
دم مردن عزيز موكجائي